المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

إبراهيم جبرا

دراسات نقدية

الرحلة الثامنة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
١٩٧٩

الفنان في شبابه:
مختارات من يوميات جواد سليم

في عام ١٩٤١ عاد جواد سليم إلى بغداد من دراسة النحت [illegible] وروما. وشرع في كتابة يوميات دعاها «مرآة وجهي». وكان اذ ذاك في [illegible] من عمره.

وهذه اليوميات، على تقطعها وتباعدها المتزايد على مر السنين، سجل [illegible] لتجربة جواد سليم الشخصية والفنية، سجل لبحثه، وتطوره الفكري والعاطفي. وهي أقرب إلى حديث الفنان إلى نفسه في مونولوغ طويل، لشدة ما في تفاصيلها [illegible] صميمية وتلقائية.

غني عن الذكر انني فيما اخترته منها تجنبت ذكر أسماء الأشخاص. فيما عدا الاجانب منهم، إلا في مواضيع قليلة. وقد اقتصرت على الفترة التي قضاها الفنان في بغداد بعد عودته من باريس وروما، إلى يوم مغادرته اياها إلى لندن (مدرسة السليد) لاستئناف الدراسة، في ٨ شباط ١٩٤٦. غير ان اليومية الأولى هنا، مأخوذة من اليومية التي يبدأ بها دفتر يوميات الفنان.

ج. أ. ج

بغداد ١١ أكتوبر سنة ١٩٤١

سأكتب عن كل يوم رأيتك فيه
سأكتب عن كل يوم سأراك فيه
ستكون أيامي التي لا أراك فيها أيامي التي تموت
ستكون اللحظات والثواني التي رأيتك فيها خالدة كأيام الربيع.

ذهبت صباحاً أنا و (ع) حسب الموعد. (ع) وقف عند الباب ودخلت أنا إلى الحديقة. كان الكل نياماً، رجعنا إلى الطريق وذهبنا نسير إلى قرب «الجرداغ» لقضاء الوقت وكانت الساعة ما يقارب السادسة والنصف. بعد نصف ساعة تقريباً كان القوم قد استيقظوا من النوم. دخلنا الصالون لانتظارهم. دخل (...)، ثم دخلت هي. غريب ان الاضطراب الذي كان يعتريني قبلاً عند رؤيتها هو نفس الاضطراب الآن.

كانت مرتدية ثوباً حريرياً أخضر اللون وتنورة زرقاء غامقة من الصوف. كان المجموع مع لون شعرها وبشرتها من أجمل المناظر. أتت (...) و (ف) بعد قليل ثم أكلنا الفطور مع الحديث الجميل على الفيرندا.

خرج (...) و (ع) وبقيت أنا و (ف) وكانت هي و (...) في غرفة (...) يرقصون. ثم ذهبت (ف) أيضاً فبقيت أنا و (...) معها فقط، ولقد قالت لي أنها ستبقى قليلاً جداً ثم نخرج أنا وهي. وقد كنت أنا الآخر مصمماً على تركها، لأن البقاء معها و (...) من أخطر الأمور...

(...) ذهبت لترتدي ثوباً جديداً كانت قد أخذته من أمها كما تقول. وعندما دخلت كدت أنصعق في محلي، لا أدري ماذا أقول. انني مهما أكتب فانني لن أتوصل إلى وصف ما رأيت. لقد ظهرت بثوبها هذا صورة من أفظع الصور للجمال والفتنة. في تلك اللحظة كدت أذوب، كدت أبكي. كان ثوبها هذا بسيطاً جداً يظهر ذراعيها إلى بداية الكتفين وفتحة الصدر على شكل مستطيل، أما ألوانه فمن أجل الألوان. ورود كبيرة ذات ألوان بهيجة براقة وصافية.

ان هذه القطعة من القماش الالهية الرائعة التي فصلتها أيدي الجنة كانت على بدنها العاري تماماً.

لا أدري من الذي كان يقدر أن يتحمل هذا المنظر دون أن يفقد صوابه. كانت هناك طيات رقيقة تتثنى حول صدرها ثم تتلاشى تحت ثدييها اللذين كان برعماهما متجسمين تحت القماش. وكانت ألوان وورود كالحلم تدور حول بطنها وفخذيها كما تدور ألحان سمفونية رائعة ثمَّ تتكسر وتتلوى فوق ركبتيها. ينتهي الفستان عند ركبتيها وكانت جزيرة من جزر الخيال، وتتم هذه السمفونية الرائعة بألوانها وتكوين ساقيها الورديتين الصافيتين صفاء البحر ثم قدميها العاريتين.

في بادئ الأمر بقيت صامتاً خاشعاً، ولقد أحست ما فيّ بدون شك. ولكني تشجعت أخيراً وأخذت أنقد الثوب وكان نقدي كما أظن مصيباً. ولقد ذهبت مرتين

أو ثلاثاً إلى غرفتها لتمتحن ما أقول في مرآة غرفتها. ورجعت أخيراً مصرة على اني غير مصيب (تأملت قليلاً). ومرة مددت ساعدي على صدرها وأنا أمتحن الفستان ولمست أناملي ثديها الرطب الباكر فهبت في جسمي نسمة من الغبطة العلوية وريح السعادة. سعادة انسان يلمس لأول مرة الها من معبوداته. لم تقل شيئاً سوى انني رأيت خديها يحتقنان بالدم.

أتت امها واستلقت على الديوان وكانت هي خارج الغرفة. وعندما دخلتها أرت الثوب لها وقالت ان كتفي الثوب عريضتان (وكان هذا نفس انتقادي، ففرحت كثيراً).

لم أتحمل الموقف أخيراً فقمت وكانت الأم نائمة، سألتني ووجهها كله حنو وحنان عن سبب خروجي، وكان بلا سبب طبعاً، فاعتذرت وخرجت بهدوء و (...) لا تزال جالسة.

قلت لها مرة ان الأشياء التي هي جميلة جداً تؤلمني كثيراً بعض الأحيان...

٩ نيسان ١٩٤٢

يظهر ان الظروف لم تكن وحدها هي المانع في كتابة مذكراتي عن أيامي الأخيرة القلائل بل هو الخوف. نعم الخوف. ان هذه الأيام التي تعد على الأصابع هي أخطر أيام حياتي وأهمها. انني لا أدري ولا أتشجع أن أقول انها آخر أيامي معها وان شيئاً يقول في نفسي بأنني لن أراها ثانية، من يدري... انها ليست لي ولم تكن في يوم من الأيام. لم أقف أمامها مفتوح القلب لكي تفتح لي قلبها هي الأخرى. انها ستسير وتبتعد كل يوم آلاف الأمتار... سوف تكون في دنيا جديدة وحياة جديدة وصور جديدة، ستنسى وتسير مع التيار، أما بغداد الكئيبة وذكرياتها التافهة فستكون من همس النسيان ومن خيال الماضي الزائل...

حملت لها صباحاً في اليوم الأخير الطوق الذي وعدتها به. وصلت البيت صباحاً في ما يقارب الساعة العاشرة والنصف. دخلت وكان الطوق في يدي ملفوفاً بالورق وكنت لا أدري ما سيكون تأثيره فيها. هل ستحبه أم لا؟ كنت غير مرتاح. رأيتها في الفراندا واقفة فدخلت في غرفة (...) وخبأت الهدية ثم ذهبت عنها وحييتها. تحدثنا قليلاً وسألتني عن صورتها وهل سأكملها!.. عندها قلت لها بأنني قد جئتها بما وعدتها به. فذهبت إلى غرفة (...) وجاءت ورائي. فأعطيتها اياه وأنا مضطرب.

فتحت الورق وسمعت صوت أجراس الطوق الصغيرة وأنا أنظر إلى عينيها ووجهها.

شكراً لله وألف شكر. لقد كان هذا اليوم أنجح أيام حياتي. لقد وفقت فيما كنت أسعى نحوه وهو أن أرى بين يديها شيئاً أهديته إليها. لقد أحبته كثيراً جداً. هذا كل ما كنت أحلم به. انه طوق من الفضة بلون غير براق، جميل ومعمول بصورة فطرية جميلة جداً. سيطوق جيدها في أيام ستأتي. ستحس ببرودة الفضة على صدرها الرطب الدافئ وسوف تتذكر. ستقف في غرفتها في يوم من الأيام أمام المرآة وتضع الطوق حول نهديها فيزيدها جمالاً.

من أعجوبة الأقدار كان فرحها لا يوصف بـ (خشل العرب). أسرعت نحو المرآة ووضعته حول رقبتها فتدلت أجراسه وقطعه المدورة على صدرها وكانت مرتدية فستانها الأحمر البسيط.

ووقفت طويلاً تنظر إلى نفسها وانا أمامها أنظر اليها بفرح منقطع النظير، لم تقل شيئاً حتى انها لم تشكرني. لبسته في رأسها ثم في خصرها فكان في كل مرة يزيدها جمالاً. سألتني من أين؟ فكذبت لها بعض الكذب. ذهبت بعدها وخبأته في صندوق سفرها ورجعت مسرعة. خرجنا للحديقة ثانية وأخذنا نتكلم. اقترحت أن نذهب إلى حديقة القصر الثاني لقطف بعض الأزهار فذهبنا وعبرنا السياج وهناك أخذنا نسير بهدوء وحيدين. وكان جو هذا الصباح صحواً جميلاً رطب الهواء عذب النسيم... كنت أنظر اليها دوماً والى شعرها ومشيتها وحركاتها وضحكها. لقد كنت في حالة استسلام غريبة. لقد كنت في ذلك اليوم كالمؤمن الذي يصلي أعمق وأصدق صلاة عندما يعلم ان ايامه قد دنت. وقطعت لي زهرة حمراء جميلة ونظفتها من أشواكها جميعاً وقدمتها لي قائلة: أرأيت اني قد نظفتها من كل أشواكها. انها جميلة ونقية. فقلت وأنا أستلم الوردة ان بعض النساء يمتزن عن الورود بأن ليس لهن أشواك. وقفنا تحت شجرة توت كبيرة فنظرت إلى بعض الزهور الصغار القصار المختلفة الألوان وقالت: لا أدري ما ينتظرني...

عندما جمعنا مقداراً من الورد الذي كنت أجمعه في يدي بعد أن تقطفه هي، اقترحت أن نذهب بالورد إلى بيت (ف) لاعطائها اياه، وما كانت هناك سيارة لتنقلنا. فأشارت ان نسير على الأقدام، أنا وهي وحدنا، نسير مسافة من الطريق ليست بالقصيرة. يا لمنحة السماء! تصورت حالاً الوقت السعيد الذي سنقضيه من بيتها إلى بيت (ف) في فضاء فسيح تحت شمس صافية نسير على أقدامنا أنا وهي وحيدين... ولما بدأنا السير جاء (...) فتوقفنا عن المسير، فأصرت هي وأصر هو ورجعنا بعد حين وأنا خائب البال، كالفارس المندحر من الميدان أو كالطائر الذي أراد أن يطير فخانه جناحاه. دخلنا الدار

وسرعان ما ذهبت وأخرجت الطوق وارته (...) وكانت أمها قد جاءت فجن جنون (...) عليه وأحبه كثيراً حتى انه أراد أن يأخذه لنفسه! كما ان الأم كان اعجابها به لا يوصف.. كان الطوق ينتقل من يد إلى يد وأنا أنظر وجهها وشعرها وفمها. ان هذا اليوم يوم هائل.

٤ تموز ١٩٤٣

تركت الكتابة مدة طويلة لتفاهة الحوادث عندي وتشابهها.

٢٣ تموز ١٩٤٣ *

.....

كان لهذا الشتاء الماضي وبعض حوادثه أثر خطير في حياتي وللظروف بعد عجيب في مجرى حياتي، فان الانقلاب الهائل الذي حصل لي في الـ painting في هذه السنة هو هذه الظروف العجيبة التي لم تخطر ببالي. عندما كنت في باريس لم أعط اهتماماً كبيراً للتصوير مع حبي الكبير له وعلى الأخص المدرسة الفرنسية الحديثة ورجعت إلى بغداد وأنا لا أعرف شيئاً عن هذه المدرسة التي كنت معجباً بها... وفي باريس قليل من يعرف لتلك المدرسة حق قدرها ويدرك كل أسرارها لأن مجرى التصوير كان يقوده في تلك الأيام جماعة بكاسو وماتيس وبراك ودالي. وباريس تقبلت هؤلاء برحابة صدر لأن صدرها كان مريضاً فرأت فيهم أحسن الدواء لأعصابها التعبة الخائـرة. فإذا هذا الاندفاع القوي يجرف أمامه كل شيء وبقي قليل من الرسّامين في الطريق التي رسمها سيزان وأعظم الرسامين في فرنسا كلها الآن بيير بونار الذي يعد الآن من أشهر الـ (colourists) في العصر الحاضر.

قبل عشرين سنة سافر جماعة من المصورين البولونيين من عشاق المدرسة الافرنسية الحديثة إلى باريس مع استاذهم صديق بونار وهناك مكثوا مدة سنة يتعرفون إلى عظمة هذه المدرسة وأسرارها بالدرس مع بونار وحضور المحاضرات عن النحت في المتاحف ثم رجعوا إلى وطنهم وكانوا من مشاهير المصورين ومنهم من شاهدت اسمه في باريس وروما.

وكانت الحرب، وانتقل بعض هؤلاء إلى بغداد فتعرفوا بي وبفائق حسن في معرضنا السنوي وكان ذلك لقاء حاراً وعلى الأخص بعد أن عرفوا اننا (باريسيان). وابتدأت بيننا

(*) هذه اليومية نسخة عن رسالة كتبها الفنان الى صديقه خلدون ساطع الحصري الذي كان يومئذ في بيروت.

صداقة متينة استعدنا فيها تأثيرات باريس قدر طاقتنا وقدر ما تتمكن به بغداد. وتعرفت منهم بأشياء لم أحلم بها، أشياء سيكون لها تأثير عظيم جداً في مجرى حياتي.

أخـــــــــــــذت أعرف الآن من هم الـ (impressionists) والـ (post impressionists) عرفت ما قيمة المدرسة الافرنسية الحديثة. عرفت الآن ما هو (اللون). عرفت اللون وكيف تستعمل الألوان. الآن أخذت أفهم صور سيزان ورينوار وفان كوخ وصور عظماء المدرسة الايطالية وصور كويا الخ.. ثم عرفت شيئاً أكثر من هذا عرفت قداسة العمل، عرفت قيمة الوقت... كنا نشتغل كل يوم من ابتدائه إلى نهايته بدون انقطاع وفي المساء نجتمع في القهوة البرازيلية لنحتسي القهوة الفرنسية مع جدالنا الطويل. كنا نسمي قهوتنا هذه (cafe dome)، كنا نتجادل حول كل شيء وكنا آخر من يترك القهوة.

صادف انقلابنا هذا كثيراً من الحقد عند بعض أصدقائنا وهاجمنا كثير من الناس واتهمونا بالتمثيل. لأن هذه المعرفة الجديدة كانت تقوي عزائمنا يوماً بعد يوم وكان هذا اللغو الذي يثيره هؤلاء الأصدقاء يتلاشى على هذه الصخرة من الايمان القوي...

... هناك فرق بين الـ (impressionism) والـ (post-impressionism) فالثانية هي مدرسة سيزان. وسيزان هو أول من رأى الضعف عند أصحاب الأولى فتركها وأخذ حسناتها وأضاف اليها الـ (form) والـ (Design) أي ما معناه الكيوبيزم فأول من استعملها هو سيزان.

ان عظمة الـ (Post-impressionism) لم تقف عند اللون والضوء وطريقة خلط الألوان بل تعدتها إلى حقيقة عظيمة هي هارموني الألوان وتأثير الألوان على النظر، أي مثل هارموني الموسيقى وتأثيرها على السمع وهذه الحقيقة مستند (؟) إذ إن هذا الاستناد كان ينطبق على كل صورة فنية منذ التصوير عند المصريين إلى اليوم...

... ان الفنان الذي ينشد الوصول إلى هدفه يجب أن يكرس له كل قواه وحياته، وفي الأخص في هذه الأيام، فيجب عليه أن يهضم كل قديم ليأتي بالجديد، وما هذا القديم إلا دنيا هائلة...

اني أشكر الأقدار لتوصلي لمعرفتي الجديدة وسأبدأ منها مفتوح العينين ومفتوح الفؤاد لأن طريقي منير. قبل سنة كان طريقي مظلماً لا تنيره المعرفة...

في كل بلاد العالم (توجد) الألوان حتى في بلاد بابام وبلاد الاسكيمو. يا أخي الدنيا كلها ألوان، حتى في الوحل الذي أمام شارعنا ملايين من الألوان.

من الأمور التي أفادت المصورين الافرنسيين افادة عظمى دراستهم الصور الشرقية .دراسة عميقة والتعرف (؟) على ألوانها الزاهية وكيفية استعمالها. خذ كل الصور الشرقية من بلاد الشمس المشرقة إلى أفريقيا.

خذ يحيى الواسطي أعظم من ظهر من المصورين في العراق التي تدعي انها عديمة الألوان -- بلاد النخل -- انه خلدها بصوره وألوانه أو بالأحرى خلد نفسه لأن صوره كانت تختلف عما يرى أمامه، لأنه كان يخلق صوره. لا أظنك تذكر الصورة التي كبرها عن الواسطي عطا صبري من مجموعة لمقامات الحريري. انها صورة تمثل مجموعة جمال، وجمال العراق تعرفها جيداً، لا يتعدى لونها لون التراب. لقد صورها هذا العبقري العظيم كل جمل بلون يتناسب مع اللون الذي بجانبه.

استلمنا انا وفائق قبل يومين دعوة رسمية من الاسكندرية لاقامة معرض هناك. وسأحاول كل جهدي الذهاب إلى مصر ثم المرور بلبنان. وهناك أجرّ وأنت تجرّ. بعد شهر ونصف سنفتح معرضنا السنوي الثالث وبعد ذلك بثلاثة شهور -- اذا سارت الأمور على مجرى تام -- سيقام معرض في الاسكندرية للفنانين العراقيين وبعدها بمدة في مدينة القاهرة بدعوة من جمعية أصدقاء الفن هناك.

... مسيو جابسكي من كبار المصورين البولونيين ويعد من النقاد المشهورين في أوروبا. ان بعض كلمات هذا الرجل ستبقى في رأسي طول حياتي.

سألنا مرة:

-- هل تحبون بلادكم؟

فأجابه (...) وكان معنا، على الفور:

-- لا

فقال جابسكي: انك غلطان. ان الانسان لا يبدع في رسم شيء لا يحبه، وانكم لن تكونوا شيئاً اذا لم يكن في قلوبكم الحب الصادق العميق للبلد الذي أعاشتكم تربته. خذوا مثلاً المصورين الافرنسيين.

لقد أحب رسومي كثيراً وأعجب بها اعجاباً شديداً وقال انني واصل فيها إلى شيء

جديد. وقال ان أنا توصلت إلى ادماج هذا الرسم في التلوين فانني سأعرف نفسي وأحصل على شيء يعرف بي.

ومن أقواله: يجب أن تستغلوا عدم مجيء المصورين الأوروبيين العظماء إلى بلادكم لأنها غنية بالألوان والصور وغنية بالمواضيع.

الاثنين ١١ تشرين الثاني ١٩٤٣

لقد كان علي أن أراها اليوم ولكنها لم تأت. لم أرها مدة طويلة واليوم لم تأت لأن قطرات من المطر أعاقتها.

رأيت البارحة في مسائه البارد الرطب القمر الجديد. رأيته كأنه يخرج من الموت. كنت أنا وسعيد وسهيل قرب المسبح. انني أتشاءم من منظره وأظن ان شهره هـذا مشؤوم ومظلم. لأنني لأول مرة أرى القمر عبوساً حزيناً كأنه يخرج من القبر. بعد رؤيتي للقمر نظرت إلى سهيل وذكرت أمنيتي في قلبي. وبعد ساعة من هذا الحادث. كنا نحفر تحت سيارة سهيل مثل العبيد ونحمل السيارة على ألواح من الخشب مثل العبيد. وبقينا نشتغل ثلاث ساعات. نحفر دواليب السيارة الضخمة ثم نحملها ثم ندفعها. فلم يجدها عملنا ثمرة. وبقينا ننتظر في السيارة في ليل مظلم موحش قرب الشاطئ. كنا نستمع إلى كونشرتو شوبان وبتهوفن إلى أن جاؤوا لنجدتنا.

ذكرني بالبارحة حادث اليوم. تذكرت سوء طالعي في القمر الجديد. انتظرت اليوم بعد صبر طويل. انتظرت أن أراها. أرى نظراتها. أردت أن أعرفها لآخر مرة ولكنها لم تأت لأن اليوم نعم اليوم أمطرت ساعتين، وهي تخاف المطر. ولكن هل كان لها أن يمنعها المطر عن رؤيتي بعد كل هذه الأيام. كانت تعبدني عبادة. يتجسم لي الآن ان هذه المرأة قد قطعت كل صلة لها بي. أنا أظن على الأكثر انها سئمت، وهذا ذنبي كما هو كل مرة. ان أكثر النساء اللواتي قطعن علاقتهن بي كان السبب عندهن برودي وكبريائي وعدم اهتمامي. على كل انني مرتاح من النتيجة. نتيجة هذه الفتاة التي كان اتصالي بها غير اتصالي بباقي النساء. انها عبدتني كالجارية وأنا أحببتها لا كما أحب باقي النساء. لا أدري، لقد كان فيها شيء ليس في باقي الناس، لا في الايطالية ولا في الفرنسية. من يدري، يمكن لأن دمها الحار كان يشبه دمي. لم تكن جميلة ولكن وجهها وفمها كانا يستهويانني ويجلباني اليهما كما يجلبنا الهواء لاستنشاقه. كان لكلماتها البغدادية الطبق الأصل وحنانها البغدادي، بلد أمي، * يزيد تعلقي بها. ثم هذه الحركات والضحكات ثم

( ) أما «بلد» أبي الفنان في الأصل فهو الموصل.

هذا العطف والحنان، ثم الحب ثم الاستسلام اللانهائي. تصرفاتها وشجاعتها وجنونها كلها كانت تستهويني. انني سأحاول أن أنساها ولكن هل سأنسى قبلاتها الدافئة الهائمة؟ قبلاتها العديدة التي كنا نسرقها سرقة. هل سأنسى شعرها وبشرتها السمراء؟ لا...

الثلاثاء ٩ تشرين الثاني ١٩٤٣

ان الشك والغموض يقتلانني. أريد أن أعرف الحقيقة كي أعمل بما يجب أن يكون. ان هذه الفتاة قطعة من الغموض. هل أحبت غيري، أو هل رجعت إلى خطيبها أم لا تزال تحبني. أريد أن أعرف. البارحة كانت باردة كالصخرة. انها آلة جميلة بلا وتر. لعلها تنتقم مني. لعلها لم تحبني يوماً من الأيام بل كان اتصالها بي مجرد لهو. لعلها امرأة عادية قد خلقتها أنا، ولكن ميلي إليها وتعلقي بها؟

لا أدري. اني ضعيف. هل أرضخ وأُري ضعفي لها. أم أنتظر! هل أقول لها اني كنت أذكرها طوال مدة السفر. اني كنت أرى وجهها على الجبال الخضراء. على أشجار البلوط. على المياه البيضاء المتدفقة. كنت أحس بذكرى قبلاتها وحرارتها في المساء عندما أختلي إلى نفسي وهل أقول لها ما قاسيت من هذه الذكرى، وهل أقول لها اني أتيت إلى بغداد وتعذبت بالانتظار.

كنت أنظرها ملياً وهي تشتغل البارحة. لقد نظرتها بغير قلبي. انها امرأة عادية ككل النساء ولكنها امرأة تجمع فيها كل النساء. ملابسها وحذاؤها الجميل، جسدها الحار الممتلئ المثير. فمها وشهوة الجاذبية فيها. شعرها الطويل المبعثر. لقد كنت أنظر إليها طويلاً وجسدي أحسه يحترق...

١٩٤٤/١/١٥

ليلة الجمعة الماضية كانت ليلة غنية جداً. ذهبت بسيارة (ع) إلى الكوكتيل بارتي للمستر (ستيوارت بيرون) وهناك كان سعيد ثم جاء ميجر سكيف وكابتن تولست. عزمتهما على الشاي عندي ثم ابتدأنا أنا والميجر سكيف بجدل طويل حول الفن وعمل الفن في هذه الأيام. رأيه ان الفنان في هذه الأيام تجرفه الأفكار والبحوث الفنية أكثر مما تجرفه الحياة وصورها التي كانت منذ القدم الايحاء المباشر للفنان والعالم الذي يعكسه في صوره، والتي يخرجها بدوره على شكل صورة أو تمثال أو شعر أو موسيقى. ثم تكلم مع رسكن وآرائه والهجوم الذي صار عليه. ثم قال ان الجيل الجديد أخذ يقدر آراء هذا العالم

والمؤرخ ويأخذها جدياً. ورسكن هو الذي هاجم كل جديد في انكلترا والذي نادى بضرورة بقاء الصفة الوطنية في الفن، وهو الذي هاجم وسلر أفظع هجوم كما هاجم ترنر.

... ان الفن ككل حركة ثقافية أخرى يتبع تطورات الحرب ونتائجها. فالحرب الماضية أثارت حركة من حركات الفكر في أوروبا وظهرت مدارس جديدة في الشعر والموسيقى والرسم والنحت ولقد سميت هذه المدارس وهذه التطورات الفكرية اليوم ما بين الحربين... ولقد تشعبت آراء النقاد الأوروبين حول قيمة هذا الفن... إلا ان السوريالزم وهي آخر ما وصلت اليه هذه المدارس الحديثة تعطي فكرة بسيطة عن مدى تعقد هذه المدارس ومبالغاتها.

أما في العراق فالفن على «حداثة» نشأته فيه لا بد أن يتأثر بهذه التطورات الجارفة، ان قليلاً أو كثيراً، ولكني شديد الأمل ان للعراق مستقبلاً باسماً في الرسم. أولاً لبعد الفنان العراقي عن الحرب نسبياً وانهماكه بعمله، ثانياً لما وهبته له ظروف الحرب من الاتصال بشتى الفنانين الاجانب من انكليز وبولونيين وغيرهم.

* * *

انني كثيراً ما أمثل دور النحات بالمؤلف الموسيقي، فالمؤلف الموسيقي تتعلق درجة إنتاجه بكثرة سامعيه، فكلما كثروا كثر انتاجه وأخذ شكلاً أرقى وأنفس، وكلما قلوا صغرت انتاجاته وقلت قيمتها.

والمؤلف الموسيقي لا يمكن أن يؤلف سمفوني أو أوبرا إلا بطلب حكومي أو طلب إحدى الجمعيات الكبيرة، كذلك النحات لا يمكن أن يعمل غالباً إلا للحكومة أو الجمعيات. وتتشابه القطعة الموسيقية بسعة رسالتها مع النصب الموضوع في احد الميادين والذي يعطي فكرة نبيلة عالية لكل سائر.

وللعراق مستقبل باهر في النحت لافتقار متاحفنا وميادينا وبيوتنا إلى إنتاج النحات. وكما كانت في أوروبا حركة واسعة بعد الحرب العظمى لاقامة النصب التذكارية واشتراك النحات والمعمار في عمل دنيا جميلة فان انتهاء هذه الحرب ستفتح باباً أوسع لاشتراك الفنان في بناء دنيا جديدة مفرحة وصالحة.

٥ شباط ١٩٤٤

انني أكتب هذه الكلمات وأنا في حالة نصف وعي والساعة تقارب الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. لقد كانت هذه الليلة غريبة من نوعها. ولظروف هذا اليوم قررت أن

أشرب شيئاً وبحثت عن جماعة جعفر فلم أجدهم أول المساء وتقابلت معهم صدفة في الساعة العاشرة فذهبنا إلى أوتيل النصر وابتدأنا باحتساء العرق، وفيما يقارب منتصف الليل سمعنا ضوضاء فذهبنا خارج الصالون، وبعدها دخل حسن يرقص ثم خرج فلحقت به ثم بعد قليل كنا نجلس سوياً في المحل المعتاد بكراسيه المبعثرة غير المنتظمة وموائده الموضوعة هنا وهناك. لقد كنت سعيداً هذا اليوم، سعيداً جداً. ولقد ضحكت من كل قلبي ضحكات لم أضحكها منذ أمد غير قليل. ضحكت من كل نفسي ولقـد كنت أشتد بضحكاتي لدرجة اني كنت أستعيد كل هذا الوقت الطويل الذي شقيت فيه.

١٩ شباط ١٩٤٤

لم تأت هذا اليوم كما وعدت ولكن في الساعة الرابعة بينما كنت أنزل السلم رأيتها تصعد بسرعة كأنها فتاة صغيرة. سألتها عن سبب ابطائها فقالت انها أتت بعد خروجها من المدرسة مباشرة. دخلنا الغرفة التحتانية وأجلستها قبالتي على الكرسي وجلست بقربها وأخذت يدها بيدي... أعطيتها كتاب نشيد الانشاد لتوفيق الحكيم فشكرتني وأخفته في عباءتها. كانت فرحة جداً في ذلك اليوم.

* * *

... في المساء قررنا أنا وسعيد وجلال وعبد الله أن نذهب إلى النهر ثم إلى المعهد البريطاني لا لسماع الحفلة الموسيقية بل لرؤية (أيرينا سافوسكا). أما أنا لم أر مانعاً من الذهاب وا نكنت صممت أن لا أرى هذه المرأة مرة أخرى. ذهبنا بعد احتساء كأسين من العرق الذي تخلله جدال عن الشعر وأشياء أخرى وكان معي كتابي الجديد (The poetic works of Shelley) وكتاب (Aldous Huxley).

في القسم الثاني من الكونسرت وقد كنت واقفاً خلف سعيد، سألني سعيد هل البولونية تلبس ملابس عسكرية، فقلت نعم. فقال – هذه هي واقفة هناك –

وعندما رفعت رأسي سقطت عينها علي وبسرعة أدرت رأسي إلى غير محل. قال سعيد عند رجوعنا أنا و... وجميل وسعيد والرجل السويسري إلى القهوة: ان البولونية حاولت المجيء إلى قربنا ولكن كان خطيبها يمنعها، وقال انها لم ترفع عينها عني إلا قليلاً قليلاً.

البارحة كانت ليلة جميلة.

٥ نيسان ١٩٤٤

هذا اليوم الثالث الذي يصيبني فيه هذا الوجع الغريب في رأسي، لقد اشتد صباح هذا اليوم وضايقني جداً وكان جسمي منحلاً وكان يعتريني تعب بين حين وحين. أردت الخروج للرسم فلم يساعدني الوقت، وأمضيت الوقت في ترتيب أوراقي. أخذت حماماً بعد الظهر فأنعشني نوعاً ما وبما ان هذا اليوم هو يوم مجيء... اهتممت في ترتيب ملابسي.

١٥ نيسان ١٩٤٤

اليوم أظن قد انتهى كل شيء بيني وبين... وأظن أيضاً قد انتهى الحب بيني وبين أي امرأة أخرى. يجب أن لا أنكر على نفسي اني وصلت عمراً جدياً يجب أن أكرسه لأمور أهم من التسلية والعواطف – الحب – وضياع الوقت. وفوق ذلك قد وصل عمري الخامسة والعشرين فأنا في طور آخر الآن غير طور الشباب. وأيضاً لا أعتقد ان امرأة أياً كانت ستتعلق بي. هذا ما أتصوره! من يدري؟

كثيراً ما كنت ألوم نفسي على الأوقات الضائعة وكنت أقرر دائماً ان أبدل من نفسي وأنظم اتجاهي ولكن ضعفي ينقلب علي في كل مرة. وفي الحقيقة اني لا ألوم نفسي. انني انسان أو حيوان بأبسط عبارة، أريد أن أعيش، أريد أن أشبع من الحياة. أريد الحياة كلها حلوها ومرها. أريد أن أكون ككل انسان. كثيراً ما تخطر ببالي هذه الفكرة الغريبة المرة وهي انني وان كنت سأعمل شيئاً في المستقبل أو أكون شيئاً ولكن سأموت بعد هذا الاجهاد الهائل والتعب المضني أموت وأنا لا أعرف الحياة. لا أعتقد أي قيمة ستعطى لي بعد هذا العمل. أهو الخلود أم الشهرة بعد ضياع العمر؟ انني سوف أموت ككل البشر ولكني لن أعيش ككل البشر، كثيراً ما أتمنى أن أفرغ من كل شيء. أن أنسى كل شيء. أريد أن أنسى كل ما رأيت وكل ما سمعت وكل ما قرأت. أريد بكل نفسي ان أكون انساناً فطرياً.

* * *

قضيت صباح هذا اليوم في السفارة البولونية. رأيت ما يعمله بعض النساء البولونيات بصبر ونشاط غير منته في زخرفة بعض القطع الفخارية العراقية لبيعها وجمع ما يربحونه لمنفعة الصليب الأحمر البولوني. لآلاف النساء والأطفال المحتاجين. للجيش الهائل من البشر المعوز البعيد عن أرض الوطن البعيد عن الراحة والهدوء. ثم فرجني مسيو أدستر ومسكي على بعض الصور التي لديه من مناظر كردستان، وعلى الأخص بعض مناظر

كليبشن. هذا الرجل غريب وهو الآن أخذ باجادة اللغة العراقية. ومن بعض رحلاته هذه الرحلة الجريئة وهو بمفرده إلى كردستان ثم إلى كليبشن التي لم نقدر نحن أن نقوم بها أنا وفائق وعطا وجلال وفاضل. نحن الذين من هذه البلاد والذين نعرف لغتها وأرضها. سألته كيف دبر مواد المعيشة هناك؟ فقال عندهم تمن [1] وعندهم لبن جيد ولحم...

... بعد ذلك ذهبت مع احدى السيدات إلى دار الصليب الأحمر – الأخرى – ودخلت معها الدار ثم إلى كوريد ورات ووصلنا غرفة فيها عدة اسرّة ظننتها بادئ الأمر مستشفى. ولكن الأسرة كانت فارغة وأوقفتني المرأة بحركة بسيطة من يدها ثم وقفت في الباب تنتظر وعرفتُ السبب وهو ان هناك امرأة تتعرى، وعندما دخلنا الغرفة رأيت امرأة شقراء ترتدي رداء ليلياً وردي اللون وشعرها مبعثر بصورة جميلة. أرتني السيدة قطعة لبنطلون من الملابس الوطنية لزيادة معرفتي بهذا الزي. بعد ان رسمنا شكل الزخرفة شكرتها وخرجت. في طريقي وأنا أحمل الصور الثلاث والألبوم رأيت أرينا سوفسكا وخطيبها في سيارة السفارة البولونية وهي تنهب الأرض إلى الوزيرية التي ماتت فيها آمالي وآلامي. وفي طريقي أيضاً من باب المعظم رأيت... تنتظر مع بعض المعلمات...

١٦ نيسان ١٩٤٤ : [2]

انني في هذه الأيام أمر في دور مزعج ولأول مرة في حياتي أشعر بنوع من اليأس من كل شيء وان مرارة الألم من هذه الحالات النفسية تزداد عندي بصورة مخيفة. ان مستقبلي وعملي يأخذان علي كل تفكيري. أتصور أحياناً اني لن أرى أوروبا مرة ثانية وانني سأبقى كما أنا عليه وفيه. ثم أتصور ماذا يمكن أن تعطيه لي أوروبا؟... وأتصور أحياناً أنني قد أصبحت شيئاً في يوم من الأيام. أو قد عملت شيئاً ولكن بعد فوات الأوان. ما تهمني الشهرة والخلود اذا لم أعش. انني أحب الحياة. أحبها كلها. أريد أن أعيش كالآخرين. لأنني سأموت مثلهم. وأكثر ما يثقل علي الآن هو تقسيم قواي بين الرسم والنحت. أظن يجب أن أترك أحدهما في يوم من الأيام لأنهما معاً سيكونان فوق طاقتي أو أن قابليتي ستتجزأ بين الاثنين. على الأكثر سأترك الرسم نهائياً وكثيراً ما أتمنى لو أنني أنسى كل شيء. كل ما سمعته ورأيته وقرأته. لأعرف نفسي الحقيقة الصافية. أريد أن أنتزع نفسي من كل هذا البحر الزاخر من المدارس والاتجاهات.

---

(١) أي أرز.

(٢) هذه اليومية في الواقع نسخة عن رسالة قد يكون الفنان أرسلها أو لم يرسلها إلى صاحبها.

٢٠ نيسان ١٩٤٤ :

ذهبت اليوم بسيارة المستر... إلى داره مع حقي وفائق حسن للغداء. جاء بعد قليل أحمد مختار والمستر بودن الرسام الحربي الانكليزي وبعده جاء رجل طويل ذو مظهر جذاب وشخصية قوية. وقد كان مراسلاً حربياً مشهوراً على ما يظهر وقد قال لي المستر (فلب) انه كان يملك مجموعة من صور مودلياني، واوتريلو، ودوفي، وقال أنه اشتراها كل واحدة بخمسة عشر فرنكاً ثم باع قسماً منها بعد ذلك بآلاف من الفرنكات.

كان الحديث ملذاً جداً. تناول المسرح والرسم وبعض الحديث حول شؤون العراق وأخذنا الغداء في الطابق الفوقاني في الطرمة وكان منظر النهر خلاباً في ذلك اليوم. كما أن الغداء كان شهياً وعلى الأخص جرعات الفرموت الكبيرة التي كنت أجرعها مع الأكل. عندما خرجنا كنت في حالة عالية جداً، كنت في حالة نشوة وانطلاق واسع كالعادة عند احتسائي شيئاً جيداً وبمقدار متوسط.

١٣ أيار ١٩٤٤ :

لقد طالت المدة وكثرت الحوادث وأنا بعيد عنها وفي الحقيقة لم يحدث شيء يستحق الكتابة.

حتى المعرض فانه بالنسبة لعملي حادث ليس كثير الأهمية. قبل المعرض الربيعي لجمعيتنا ذهبت الى دار البولونية أي الصليب الأحمر البولوني في الوزيرية فأخذت صورة (كريشا) لوضعها في المعرض. طرقت الباب عدة طرقات فسمعت صوتها من داخل الغرفة (بروستة) وللتأكد طرقتها مرة ثانية فصاحت بصوت عال (بروستة) فدخلت، وعندما رأتني تهلل وجهها واستقبلتني بحماس وحرارة جعلتني أفقد نفسي من شدة فرحي ونشوتي. ولقد مرت مدة طويلة تقارب الشهر لم أتصل بها ولم أرها إلا مرة واحدة في الباص. لقد كان مساءاً بارداً جداً. اللطيف في صباح ذلك اليوم أي يوم ذهابي عندها كانت تضحك دائماً، وكانت جميلة جداً وشعرها بصورة طبيعية غير مرتبة، ترتدي ثوباً جميلاً من النوع العسكري الاعتيادي ولكنه يزيدها جمالاً. كان ثدياها بارزين بشكل مثير وقدماها حافيتين. ورأيت لأول مرة لون ساقيها وكانتا عاريتين. لقد كان لونهما جذاباً ومهيجاً. اني لا أزال أذكر جو الغرفة في ذلك اليوم وكانت بعض التبديلات جارية على الغرفة.

كانت ستارة بيضاء كبيرة تحجب الشباك الكبير تماماً، فكان الضوء في الغرفة عذباً

جميلاً ورائحة الزهور ورائحتها هي المعبودة الجديدة تفوح في الغرفة. رائحة امرأة حسناء تعرف نفسها. تكلمنا طويلاً ولم أحس بالوقت يجري سريعاً...

عند افتتاح المعرض في الساعة السادسة جاءت هي وخطيبها والرجل ذو الشعر الأشقر وقد قضيت معهما وقتاً جميلاً... كان الكابتن تولست من جملة المدعوين في حفلة يوم الافتتاح وقد أعجب بصوري كثيراً جداً. وقال ان أحسن ما في المعرض هي اسكتشاتي، ولقد نزل فيّ مديحاً طويلاً وفي صوري الزيتية. واشترى مني المستر ستيوارت بيرون صورة منظر الميدان وصورة خديجة بالباستيل.

٢٩ أيار ١٩٤٤ :

لأول مرة في حياتي شعرت باليأس وأنا الذي كنت دائماً بعيداً عن التشاؤم. أصابني يأس مزعج. يأس من المستقبل؟ لا أريد بالمرة أن أكون ضحية عملي. أريد أن أعيش. أعيش ككل الناس لأني سأموت مثلهم. أخذت أفكر الآن بصورة جدية في قضيتي. ان الانسان كلما يتقدم بالسن يصبح واقعياً. اني لا أريد أن أكون كروزيتي، يبذر قادريته بين الشعر والتصوير لا يرى أيهما يجيد. وروزيتي عاش في طور رفاه وهدوء لا نهائي. أنا أعيش **الآن في وقت** يسمى القرن العشرين وتقسيم قواي بين الرسم والنحت من المؤكد سيوصلني الى لا شيء.

اني أفكر أن أتحرر من الرسم في يوم من الأيام، لأني أشعر شعوراً أكيداً أنه ليس بالشيء الذي أعيش من أجله. انه لا يعبر عن نفسي تمام التعبير. في المعرض الربيعي الأخير لجمعية أصدقاء الفن وضعت ثماني صور زيتية كانت عندي أحسن ما عملت ولقد هنئت عليها كثيراً وقد أعجب بها رسام انكليزي شاب واسع الثقافة. وكان يكيل علي المديح الى درجة السخافة. مع كل هذا كنت أشعر أن هذا الشيء ما كنت أنطق به تماماً. ومن المعروضات التي عرضتها قطعة صغيرة من المرمر العراقي الشفاف تقريباً، سميتها النهر الأسود. نحتها رأساً في المرمر بعد أن طبختها وقتاً طويلاً في رأسي واتممتها خلال شهرين بعمل متواصل. وضعتها بسعر بخس جداً. لم يشترها أحد ولم تثر اعجاب إلا القليلين. انها تثير في نفسي كلما رأيتها نوعاً من الكبرياء والراحة. زوجة المستر سيتن لويد، نحاتة انكليزية، بعد تعرفي عليها رأيت فيها امرأة غزيرة المادة والاطلاع. درست مدة من الزمن في باريس، عملها من النوع الحديث القوي وذو شخصية. لكن يظهر أنها تجهد عبقريتها المحدودة أكثر من اللزوم. ولقد رأيتها آخر مرة وهي تشتغل في تمثال من الخشب والعرق يتصبب من وجهها وعيناها الجميلتان مقطبتان كأنهما عينا رجل.

من الشخصيات الجديدة المهمة في بغداد مصور شاب انكليزي اسمه Kenneth Wood يعمل الآن في العلاقات العامة. اني متأكد أن هذا الرجل سيصبح من الفنانين العظماء في أوروبا أو انكلترا. مع الأسف لا أحد يعرف قيمته. هذا الرجل عبقري بكل معنى الكلمة، اذا استمر بصورة جدية. أكثر طريقته في الرسم حديثة جداً وخاصة به، وصوره لحياة بغداد أحسن ما رسم للآن. بيننا الآن صداقة قوية وأراه في أغلب الأحيان... انه مشجعي. في انكلترا أول من جاهر بقيمة هذا الفنان هو الممثل تشارلس لوتون. أما الشخصية الأخرى فهي الكابتن تولست. ان هذا رسام وطامس في الأدب ويجيد البيانو ويمثل، وفوق هذا فهو مفرط في الجمال. وقضية غرامه بسيدة من أجمل نساء بغداد حديث الناس، وقد ألقى أخيراً عدة محاضرات كانت احداها هائلة عن الفن والعصر الحديث، والأخرى شيقة وغنية عن الدوس هكسلي.

في هذه السنة أفتتح في بغداد ما يقارب الستين معرضاً. في آخر يوم من معرضنا الربيعي الأخير ألقيت محاضرة عن (العمل الفني) وضعت فيها كل معلوماتي وتجاربي وبحوثي عن الفن وعمل الفنان. وفي رأسي الآن محاضرة جديدة غريبة في نوعها وسأجعلها تدوي دوياً قوياً وهي الفن في العراق الحديث. الفن في الشارع والبيوت وفي كل شئ في حياة العراق. كنت بدأت بها من وقت ليس بالقصير وجمعت لها الأمثلة والحقائق العديدة. لقد أهاج في رأسي كتابة محاضرة كهذه المجادلات الطويلة عن الفن العراقي في مناسبات كثيرة وعلى الأخص في دعوات الكابتن تولست ورسالته فيها شئ من ذلك أيضاً. وسأهاجم في هذه المحاضرة كل شئ قبيح أو ميت هجوماً عنيفاً فظيعاً.

٢ آب ١٩٤٤ :

الحرب على ما يظهر تقترب من النهاية. هذه الحرب السوداء التي كانت شراً على كل انسان. هذه الحرب، التي حرمتني من كل شئ تقريباً. في دور الاحتضار وستموت بلا شك. ولكن لا أدري في هذه السنة أم السنة المقبلة. على كل مع قرب النهاية فاني لا ارى المستقبل اذ كثيراً ما يتصور الانسان خطواته في المستقبل ويرى نفسه يصعدها واحدة واحدة. ولكن هذه الحوادث الهائلة والانقلابات الجمة جعلتني أرى كل شئ تقريباً ينهار ويتهدم. الآمال والخطط، ان هذه الأيام تمحو كل خطط المستقبل. هذا لا يعني أني أتشاءم من مستقبلي، بل يجعلني أرى المستقبل غامضاً كليل لا يشع فيه الا بصيص خافت من النور.

كنت قبل أيام أو قبل سنين لا أعيش الا للمستقبل وكانت كل تصرفاتي وأعمالي تحت خطة واحدة وميزان واحد : المستقبل. ولقد جاء على هذا الناموس بكثير من الألم والنحس في اتصالي بالمرأة وعملي. كنت لا أتصل بامرأة إلا وأفكر بما ستقودني اليه تصرفاتي معها في المستقبل، فاما أن أتركها واما أن أتجرد من العاطفة. وهذه الغلطة الكبيرة تكررت عندي مراراً ولم تكن درساً إلا في هذه الأيام، وكانت درساً مراً. وأما في عملي فكنت أفكر وأبحث أكثر مما أحس. والاحساس بالشيء على ما أظن هو أهم من التفكير فيه. ان الانسان يحس قبل أن يفكر. وخلاصة الحقيقتين هي أني أمضيت خيرة أيامي في التفكير أكثر مما أمضيته بالشعور والاحساس.

في هذه الأيام أرى أعمالي تضيق علي الخناق وأحس ان ابتدائي تعلم القيثار مع المسيو جميل يرهقني في العمل، ولكن الآلة هذه تجذبني اليها بصورة غريبة. خروجي في المساء انقطع تقريباً لقلة وقتي. انني لا أدري. هناك مئات الأعمال التي يجب أن أنجزها : القراءة، الترجمة، الرسم. الدراسة أهتني عن انجاز المواضيع التي يجب أن أتمها للمعرض والأشياء الأخرى التي أراها تتراكب كالجبال على رأسي. ان الحرب على وشك الانتهاء وعندي قطع صخرية كثيرة لا أود تركها. ثم عندي اصباغ ومواد للرسم أريد أن أقضي عليها جميعاً. منذ مدة لم أقم بعمل أي صورة زيتية، وكرست كل وقتي للنحت فيما عدا الأسبوع الأخير التي رسمت فيها صورة سافوسكا، هذه الفتاة الحلوة الجميلة. وقبل أيام كنت أرى كنث وود كل يوم تقريباً، ورأيته أخيراً قبل رجوعي من البصرة ثم في الجزيرة عند ذهابنا أخيراً. قال لي أنه قد جاءني يوم الأحد صباحاً للمعهد فلم يجدني، ثم قال انه رأى قطعة الصخر الاخيرة التي أنحتها.

لقد قال لي مديحاً هائلاً أحسست منه بخجل عظيم. كثيرون رأوا هذه القطعة وهي لم تنته وأعجبوا بها كثيراً ولكن ليس منهم من مدحها مثل وود. اني سعيد.

٢٠ أيلول ١٩٤٤ :

استغربت اليوم كثيراً عند مشاهدتي رقم ٢٠ قرب أيلول. يظهر أن الأيام تسير بسرعة فائقة وعلى الأخص باقتراب موعد المعرض. اني أريد أن تسير الأيام بسرعة لكي تنتهي الحرب واريدها أن لا تسير بسرعة لأنهي أعمالي. ذهبت اليوم مع أمي إلى المستشفى. مسكينة أمي : ان اوجاع يدها تزداد في كل يوم ولا أدري ما ستكون نتيجة هذه الأوجاع. أتمنى لها الخير. انها امرأة عظيمة لا تستحق كل هذا. حياتها المليئة بالعمل

المضني والتعب والدموع ثم بالفاجعتين الأخيرتين.[1] ليس من الحق أن يريها القدر كل هذه الآلام. ساعدنا الحظ بالمستشفى برؤية خليل وسهيل وبعد ذلك رؤية الدكتور ثم الحصول على الدواء، ورجعت أمي راضية بسيارة سهيل الى البيت، وهناك رأيت مناظر مزعجة تعيسة لأناس لا يدرون ما هي الحياة، لأن الحياة لا تعطيهم إلا البؤس والشقاء والجوع. ان الشقاء يلهيهم عن معرفة الحياة. بعد رجوعي الى البيت اشتريت بطيخة كبيرة لأمي وكانت حلوة وفرحت بها كثيراً. لقد شعرت بعد أن قبلتني أمي عند ظهر ذلك اليوم بنوع هائل من الغبطة والفرح. كان فرحها بي لا يوصف مع أني قمت لها بعمل بسيط.

قبل ثلاث ليال قضيت ليلة سعيدة مع كنث وود وصديقه البينست والكابتن تولست الذين جاؤوا عندي. وكانت الحفلة في سردابي في الساعة الحادية عشرة. سمعنا كثيراً من الأسطوانات وتكلمنا وأكلنا وشربنا.

١٦ تشرين الثاني ١٩٤٤ :

انني من الذين يؤمنون بالمستقبل. إنني أثق بالغد وأؤمن بفوز الحق والأفضل. كل انسان يتطلع الآن للمستقبل، والغد ما أقربه. غدا السلام يقترب وأشباح الموب وآلات الشر تحتضر في بيوتها. ألم تتحرر باريس كعبة الفن؟ وبيكاسو النبي ألم يخرج للعالم من جديد بعد انكماشه ببيته طوال أربع سنوات لم ير فيها باريس وكان يعيش في باريس، يقول بيكاسو الآن «ان نوايا الفنان المبدع اليوم هي صد البشرية عن التردي الى حضيض الفوضى». هذه كلماته بعد تحرير باريس.

خلال هذه الأربع سنين التي وقفت بها باريس وأوروبا عن العمل الجميل، لم تقف بغداد عن العمل. كانت تعمل ببطء وصمت. كانت فقيرة جاهلة. ولكنها كانت تشتغل خلال هذه الفترة من الأربع سنين أو الخمس. فأنشئ أول معهد للفنون وفتح أول متحف حكومي للرسم والنحت وابتدأت أول حركة قوية ومباركة في مضمار المسرح والموسيقى الكلاسيكية الوطنية.

كانوا قلائل تحدق بهم المصاعب من كل جانب في عملهم الابداعي وتهيئة الجمهور للفهم والتذوق. أما عملهم، فبصفتهم البعث الأول منذ مدة خمسة قرون. كانت محاولتهم صعبة وهم يهيئون الأسس للأجيال الشابة القادمة. كان عملهم ينحصر في تأليف حلم هذا الاعرابي الملون غير المتناهي في كتب التاريخ وزخارف الريازة العربية، وحتى

(١) موت ابنها الشاب رشاد ثم موت زوجها والد الفنان.

أبعد من ذلك ، التأليف بين انسان عاش بين أحضان النهرين منذ آلاف السنين وصنع من طين هذه التربة تماثيل صغيرة جميلة ، وبين تعبير استمده من لندن وباريس وروما .

وأما الجمهور فانه على سذاجته وانصرافه عن تذوق هذا الشيء الجديد قد مهد للفنان أرضاً خصبة بكراً لبذر الثقافة الجديدة .

جاء الى بغداد في هذه الفترة المديدة من الزمن أناس كثيرون ، واذا كانت أوروبا قد أوقفت حركة انتاجهم فان بغداد هيأتها للعمل . وفتحت للفنان منهم عالماً جديداً من المرئيات تحت ظلال قبابها الفنية . ولم يكن هؤلاء طلاب البوزار في باريس أو السليد سكول في لندن بل كانوا ذوي أفكار جديدة ومن الذين يمزجون في انتاجهم الفني عصارة تأملاتهم ودراساتهم بدنيا احساسهم وخيالهم .

كان هؤلاء الأجانب ذوي أثر على هذه الفئة من الأشخاص ، ولم يكن التأثير مجرد تبادل مدارس جديدة للفن . لقد ارتبط هؤلاء مع بعضهم بميل فطري واحد هو انساني محض : حب الحياة والكفاح في سبيل النظام الطبيعي ، حب الحياة والأشياء البسيطة التي تنسينا الموت . لقد كانوا رجالاً أكثر مما كانوا فنانين . انني سأفقد واحداً منهم كصديق حميم . السارجنت كنث وود . انه سيسافر عما قريب للمجهول ولكن لدي عنوانه – بيت صغير في يور كشر .

٧ كانون الأول ١٩٤٤ :

ليست لي رغائب بالسياسة ما دمت حياً ولا يفرق عندي أي انسان عن أي انسان .

٢١ كانون الأول ١٩٤٤ :

نزلت اليوم صدفة الى السرداب وبيدي الشمعة وعندما دخلت بعد فتحي الباب لم أسمع أي صوت للكلب الصغير الذي أعطتني اياه (...) والذي كنت رفضته منها . ولقد كذبت عليها عندما قلت أنني لا أحب الكلاب . لم أسمع أي صوت للحيوان . لقد كان ميتاً في زاوية من السرداب ميتاً من الجوع . ولقد شعرت باحتقار شديد لنفسي ولكل شيء . لقد ترك المسكين يموت من الجوع والبرد . ليتني قد رميته في الشارع أو أعطيته لخالي الذي طلبه أو أبقيته عند خالتي . سيكون هذا أقسى درس لي في حياتي لأكون انساناً كاملاً في المستقبل . بقيت ما يقارب نصف الساعة قرب المسكين وبيدي الشمعة ، ولقد حاولت البكاء لأرضي نفسي فلم أستطع ، كنت أشعر بجرمي الفظيع ، كنت أتصور الآلام التي سببتها لهذا الحيوان التعس الأعزل ، والألم يأكلني أكلاً .

٧ آب ١٩٤٥ :

البارحة أغلقت أبواب المعرض لمدارس بغداد. وقد لاقى المعرض لأول مرة في بغداد نجاحاً منقطع النظير. كان الناس يأتون بالألوف يومياً. وكان عدد النساء أكثر من الرجال في الغالب. وكانت الأوقات الصباحية خاصة للنساء. فذهبت في أكثرها. كنت أقضي الوقت في سماع قطع من الموسيقى والتفرج على النساء اللواتي قليلاً ما يمكن أن يراهن الانسان في فرصة أخرى. ولقد أتاحت لي الفرص أن أتطلع عن كثب وبتأن إلى هذا النوع الجميل الغض من البيوت الفقيرة والراقية. تلك الرقة والأنوثة الهائلة والعيون الواسعة السوداء المليئة بالرغبة المكبوتة والحياء الجذاب. وأجمل شيء لفت نظري هو هذا الرداء العجيب -- العباءة -- والطريقة التي يلبسن بها العباءة. وهن يتمخطرن أمام المعروضات بنعومة واهتزاز متثاقل. وهي تنزل من على رؤوسهن ثم تلتف حول أدوار الكتف وتأخذ قطعة منها في الدوران حول الذراع العاري الأسمر ويخر قسم منها الى الأرض سابحاً حول الردفين بشكل مبهم ثم ملتفاً حول الساق الملونة.

كانت هذه المناظر تجذبني لدرجة قوية مع مناظر البنات الصغار بأرديتهن القصيرة وشعورهن النظيفة المنظمة تزينها شرائط حمراء أو خضراء. والفتيات ذوات الشعر الغزير والنهود الصغيرة والفساتين الملونة البراقة.

الاثنين ٢٧ آب ١٩٤٥ :

عندما كنت اسير الى المعرض اعترضني في الطريق متسول عصر هذا اليوم، والمتسول لا يخرج إلا وقت العصر، وقد كان يستعمل كل كلمات الرحمة. رثيت له وكنت على وشك اعطائه ما بقي في جيبي للرجوع إلى البيت في الباص وأنا في هذه الأيام لا أملك أي شيء. ولكن ما ابتعدت عنه قليلاً حتى سمعته يقول وكان آخر ما قاله :

– مسكين الله يخليك..

ثم قال بصوت خافت : الله يكسر رقبتك.

١٤ أيلول ١٩٤٥ :

عملت صوراً جديدة وتماثيل جديدة وانني أحاول دائماً أن أصل إلى شيء وسواء وصلت إلى شيء أم لم أصل فان أمامي أملاً واحداً وهو أنني ساواصل محاولاتي ودراساتي. سأحاول أن أقيم في هذه السنة معرضاً خاصاً بي أجمع فيه أحسن أعمالي منذ خمس

سنين. ألواني نفدت فانصرفت للنحت والتخطيط وأنا على وشك أن أتم قطعتين كبيرتين من الحجر وأخرى من المرمر، احداها البنت والأخرى قارئة الأفكار والثالثة أم وطفل. طلبت مني أمانة العاصمة عمل شذروان،[1] فلم نتفق على شكل الدزاين (التصميم) وطلب مني رئيس مهندسي السكك الحديدية، وهو معمار انكليزي قدير جداً، أن أقوم بنحت تمثالين طول كل واحد منهما تسع أقدام لتزيين محطة بعقوبة، فكانت تكاليف النقل والمواد أغلى مما كنت سأحصله. ولقد كنت سأجازف بذلك عندما أعطاني هذا المهندس كل الحرية في نحت التمثالين وعملت نموذجين لذلك، وهما فلاح وفلاحة يرمزان إلى بعقوبة. وكان كل شيء سائراً على ما يرام لولا توقيف صرف المبالغ.

انتهت الحرب والحمد لله. وقد أثير أمر رجوعنا لاتمام الدراسة في ايطاليا، أنا والدروبي وعطا صبري. مستحيل بعد ما حصل لها، ولذا فاننا على الأكثر سنذهب إلى لندن. على كل فانني أفضل البقاء في بغداد سنة أخرى لأتم بعض المشاريع والدراسات، منها القيام بتتمة بعض الأعمال ثم المعرض والقاء بعض المحاضرات. وهذه ستكون دراسة دقيقة عن ميول الجمهور العراقي وما يحبه وما يفضله.

جمعية أصدقاء الفن على وشك الانهيار والموت. أما ما حصل بيني وبين باقي الأعضاء فانه يضحك ويبكي. وقد انفصلت عنهم جميعاً.

٣ تشرين الأول ١٩٤٥ :

قبل أيام أنهيت عمل «البناء» (master builder) التي كنت قد سميتها كذلك. وعساني قد حققت فيها الشيء الذي أريده.

استقرت في رأسي فكرة انشاء هذا الموضوع منذ عدة سنوات. وقد استوحيت الشكل عند رويتي أسطة طه، البناء الوحيد في العراق في عمل الزخارف. وهو يعمل بكل دقة وهدوء في زقاق القصر العباسي. وقد أعجبني شكله وما جاوره من الصور والحركة والحياة واهتمامه بعمله وتأكده منه، ثم العظمة التاريخية والفنية في الشيء الذي يحاول اصلاحه. بعد رؤيتي هذا المنظر ازدحمت في رأسي ذكريات وأفكار حفرها هذا المشهد في زوايا منسية من رأسي، وتلا ذلك اتصالي المباشر بأهل البناء والأسطوات والخلفات والصناع الصغار عند بناء بيتنا الحالي. لقد كنت وأنا صغير أعجب بذلك الأسطة وهو يشتغل بكل نشاط وشوق، ويضع الطابوقة فوق الأخرى بصورة مؤكدة

---

(١) أي ناقورة

وموزونة ومركزة كالصانع الأول وتدرج الصناع حوله، ثم القصص التي كان يتخيلها وما يرويه من الحوادث عن مهنته وحبه لعمله واندماجه فيه. وكنت أعرف، وعلى الأخص في هذه الأيام، أن هذه الصناعة لم تكن كما ما كانت عليه في الأزمنة القديمة في العراق أو فارس، صناعة يقدسها أصحابها ويندمجون فيها، كما يندمج الكهنة في الدين. ولم يبق ذلك الصانع الذي تخلق يده جامعاً كجامع مرجان أو قصر الحمراء. فاضطررت وأنا أدرس هذا الموضوع إلى الاتكال على الماضي، على القباب القديمة التي هي أهم شيء يفخر به العربي أو هو الشيء الوحيد الذي أعطاه للفن المعماري. وشيء آخر، وهو الذي استمددت منه الاسم وعلى الأخص بالانكليزية هو قراءتي لمسرحية أبسن عن ذلك الأسطة الذي مات لفنه. ومرت الأيام والموضوع يأخذ شكلاً جديداً في رأسي. ثم خطوت خطوة عملية بطلبي قطعة حجرية كبيرة مسطحة من الموصل ووصلت إلى مشغلي في المعهد والفكرة لم تختمر في رأسي جيداً. كنت أجلس الساعات أنظر الى سطحها الأبيض المجلو وأشاهد الأشكال والصور وهي تخرج وتتحرك أمام عيني على الحجر، ورسمت عدة صور، ثم لجأت للطين عساني أصل إلى شيء، إلى أن أنهيت الفكرة في الصيف الماضي وابتدأت في الحفر على الحجر. واذا اردت أن أشرح ما حفرته على هذه الحجرة فسوف لا يتعدى الشيء الشكلي الحاصل ولذا فانني أفضل السكوت، ولكن يجب أن أذكر هنا أني بلا شك قد استعنت، زيادة على نفسي والطبيعة والاتجاهات الحديثة، بعدة اتجاهات فنية – مصرية – وآشورية – وغوطية، وهذا شيء طبيعي. وكان في الاخراج اتجاهان: أحدهما هو ما بدأت فيه أول عملي للانشاء، وكان نوعاً من الابتدائية الخشنة النقية الخطوط الهائجة العواطف، والثاني اتجاه كلاسيكي مثقف.

ولكن أثناء العمل وعلى الأخص في اخراج اليد اليسرى للأسطة والتي حاولت فيها وهي تلمس أعلى قمة، وأنا أستذكر كلمات (الي فور) عن الاعرابي، أن أعطيها كل شيء مثالي وروحي، أوكنت أحاول اظهار العقل والروح فيها. وعلى نعومة المادة الصخرية ظهرت اليد أكثر مما أردت من دقة الاخراج وابتعدت عن الفكرة الجامعة للانشاء، ولكن عوضت عن هذا النقص نوعاً ما في اليد اليمنى التي حاولت فيها أن أمثل القوة والشدة الجنسية – أي اليد التي تصنع وتحس وتلمس، لا اليد التي تفكر. أردتها أن تمثل القوة الجسدية فقط – الاحتمال والصبر والعرق المتصبب. ثم كيف يمكنني أن أبتعد عن الجمال ورقة الخطوط والجاذبية الجنسية في إخـــراج الصناع الصغار؟ كنت، حتى وأنا أشتغل في عملي، أراهم بوجوههم الحمراء المفعمة المكسوة برذاذ الجص وهم يشتغلون بلا انقطاع في البناية المجاورة في ذلك الوقت للمعهد (ملهى أنوار الفن). وكان هؤلاء الصغار اسطوات

المستقبل بشفاههم الحمر وعيونهم الكبار الدعج في طرف، وفي طرف آخر العمال المزدولون المساكين الذين يأكلهم المرض والجوع والبؤس من الكبار سناً، والذين لا عمل لهم إلا الحمل وبعض الأشكال البسيطة. وأظهرت هذه الفكرة كإظهار الفنان الأشوري القديم بالنسبة لتوجيه العمل في قطعه الفنية واعطاء كل شخص في موضعه قدرة من الزخرفة والاتقان. فزيادة على ما يعطيه من نسب أكبر للملك، مثلاً، كان يهتم بدقائق عضلاته وزخرفة ملابسه أكثر من الوزير، ويتدرج الى أن يصبح الأسير مجرد خطوط بسيطة. ولكنني في هذه القطعة لم أهتم بالصانع الأكبر أكثر من حامل الحفرة؟ لأنه موفور الحظ بالنسبة للآخرين. مجرد إخراجي الاسطة متقناً والآخر غير متقن أو غليظ الخطوط وغير منسق السطوح كان يوصلني للواقع أكثر. فاني أتصور أن القطعة الفنية يجب أن توجه حسب الموضوع. فمثلاً لا يمكن عمل تمثال يمثل الشهوة الجنسية كعمل تمثال (بالنسبة للاخراج طبعاً) يمثل القدسية الدينية. وفي الختام فانني أعتقد أن هذه القطعة لو استمهلت عملها قليلاً لجاءت في قالب أصح وأنسق. وسوف يأتي اليوم الذي أرى فيه كل أخطائها.

هذا أول عمل فني عملته أحبه واعجب به كل شخص، وأهم تهنئة وأعمق مديح حصلته في حياتي هو عندما تسلق البناؤون المجاورون للمعهد ومعهم الصناع لمشاهدتها واعجبوا بها كل الاعجاب. وكان يتعرف كل شخص بنفسه في القطعة.

قبل اتمامي قطعة البناء أنهيت حفر تمثال بسيط جداً على خشب النارنج. إن المواضيع البسيطة تكون أصعب من أي موضوع آخر. وكان النجاح حليفي وقد توصلت في هذه القطعة لشيء كنت كثيراً ما أهتم به، وهو عمل شيء تتخيله مخيلتي. وقد أعجبت به (هايدي)[1] كثيراً...

وفي صورة عملتها للفراش حسين استقر في رأسي شيء خطير وهو أني لا أصلح أن أكون رساماً لأني أرى شيئاً وفرشتي تعمل شيئاً آخر. وقد استنجت في كثير من المرات أني لا أرى الألوان بالقوة التي يتطلبها رسام بارع من الصنف الأول. وأنا لا أريد أن أكون مصوراً من الصنف المتوسط. اني أفكر بالشكل والحجم أكثر مما أفكر باللون. وهناك شيء غريب ويمكن أن يكون عديم النفع، لا أدري، وهو أني أجتهد بكل طاقتي وأحرص أشد الحرص في إخراج حتى أبسط القطع في النحت، بينما يكون الرسم لي كلهو بسيط لا يهمني إن كان حسب اتجاهي القديم أو الحديث بالنسبة لصوري التي رسمتها قبلاً. لقد كان للمعهد وموقعه أثر في مجرى حياتي لن أنساه مدى الحياة. قضيت فيه أربع سنوات

(١) النحاتة زوجة سيتون لويد. وقد ذكرت آنفاً.

رأيت فيها كل شيء : الحب والعمل . والآن في هذه اللحظة التي سأغادر فيها بغداد إلى أوروبا مرة أخرى تنتقل فيه هذه المؤسسة الى موضع آخر لا يصلح لشيء ، واذا لم تنجح سفرتي فسيكون حظي تاعساً فان المحل لا يصلح لي ولا لتلاميذي . إن المحل الجديد دار بلا حديقة وبلا ذلك الممر الجميل المنعزل وتلك الغرفة وتلك الفسحة أمامها التي رسمت فيها ...

لم أر صاحبي كنث وود منذ ثلاثة أيام . لقد وعدني أن يكلم المستر لويد باقامة معرض يحوي أعمالي وأعماله وأعمال هايدي في بناية المتحف الخاص بالصور . فإن نجحت هذه الفكرة فانني سأكون سعيداً ولا سيما أني أريد التخلص من قطعتي «البناء» وبيعها قبل سفري . كما أنه طلب مني القاء محاضرة باللغة الانكليزية عن النحت للجنود الانكليز .

٢١ شباط ١٩٤٦ :

الآن وأنا في الباخرة التي تخترق المحيط إلى عالم جديد أتذكر تلك الصفحة التي كتبتها وأنا في باخرة ايطالية تحملني إلى ايطاليا والتي وصفت فيها كيف فارقت أهلي وفي عيونهم الدمع ، وكانت أرض المطار في ذلك الفراق تحمل أمي وأبي وأخوتي بأكملهم . كانت كلماتي في تلك المرة على تلك الصفحة فيها كثير من التأثر الذي انتقل بعده إلى الفرح العظيم ، والأمل الذي ما كنت أتصور أنه سيتحقق وأنا في الباخرة . وبعد أن تم كل شيء ، بيني وبين الدنيا الجديدة أربعة أيام فقط . سأكون في أوروبا بعد هذه السنوات الخمس في بغداد التي مع أني قضيت بعض أيامها بسعادة وبعضها بالعمل والتجربة ولكني دفعت ثمن أكثر أيامها غالياً . إلا أنها عرفتني الحياة والعمل ، عرفتني الأصدقاء ، عرفتني المرأة ، عرفتني الألم . والآن لقد انتهيت من بغداد . اني أتطلع إلى عالم نقي خال من الكذب . في يوم الرحيل من بغداد في ٨ شباط سنة ١٩٤٦ ودعت أمي واخذت تقبلني بحرارة ونصف وجهها مستور (بالبوشي)[1] . لم أر عينيها اللتين كنت متأكداً أنهما مليئتان بالدموع وعندما ابتعدت عنها لم ار وجهها المغطى بالبرقع . وبعدها اختلطت بالمودعين وودعتهم واحداً واحداً ، وقبلت أختي نزيهة ونوزاد ثم سعاد مخترقاً الأصدقاء الذين كانوا مجتمعين بكثرة أمام الشركة المتحدة . وعندما تحركت السيارة لم أر من أهلي إلا سعاد من خلال الشباك . بعد أن تحركت السيارة تذكرت الغائبين . وبينما كانت السيارة تعبر الجسر عابرة نهر دجلة نظرت إلى القباب والمنائر وراء البيوت وودعت أبي وأخي

---

(١) أي الحجاب .

رشاد. كانت سفرة السيارة غير ناجحة أبداً ولكنها انقضت بسلام. وقد أدهشتني عدة أشياء لدى دخولنا فلسطين، منها الهضاب والتلول المغطاة بقطع الحجر الأسود. لقد كان منظرها جميلاً خشناً...